

أخبار الأوبئة والأمراض في الرحلات السفارية المغربية

أحمد حدادي

Ahmed HADDADI

Données sur les épidémies et les maladies dans les récits du voyage diplomatique.

Résumé

Quelques informations sur les épidémies et les maladies dans les récits du voyage diplomatique marocain.

Information on epidemics and diseases in Moroccan diplomatic travel writings

Abstract

The purpose of this paper is to bring to light how epidemics and diseases are dealt with by certain people around the world. The texts under focus are borrowed from a corpus of diplomatic travel writing by Moroccans.

لقد برز المغاربة في كتابة الرّحلات السّفارية في العُصور الحديثة⁽¹⁾، تلك الرّحلات التي كان يقوم بها فردٌ أو جماعة يبعثهم فيها أحد الحكام إلى حاكم آخر ليعرض من الأغراض كالقيام ببعض المهام الإدارية أو افتداء الأسرى أو تمثيل الدولة المغربية لدى دولة أخرى⁽²⁾، فقد كان سلاطين المغرب في القرن التاسع عشر يأمرون كتاب يبعثاتهم السّفارية إلى أوروبا بتسجيل ما يروّنه مفيداً أثناء رحلاتهم من نُظم المجتمعات الأوروبية⁽³⁾.

ولما كانت الرحلة خطاباً مخصوصاً له منطّقه الدّاتي وبنّاءه ومكوّناته وعناصره، فإنها كانت تكتسي جانباً مهماً من الطرافة والجمع بين الفائدة والإمتاع، لأنها تسعى إلى أن تُرصد ما تراه عجباً وغريباً⁽⁴⁾.

وفي هذه الرّحلات جوانب مهمة من الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، والحضارية والزّراعية والعسكرية والعادات والتقاليد وغير ذلك من مظاهر النشاط الإنساني العام، ولهذا تُعدّ الرّحلات بعمامة، والسفارية منها بخاصة، من أهم المصادر المعرفية لكتابة التاريخ ورسم الجغرافيا وضبط الحقائق وتصحيحها في كثير من الميادين الفكرية.

ولقد كان اختياري لموضوع الأمراض والأوبئة في الرّحلات السّفارية يركز على إظهار جانب من أهم الجوانب التي تُبين اهتمامات الرّحّالين المغاربة، ثم الإشارة إلى أنّه يمكن الاعتماد على هذه الرّحلات في الكتابات التاريخية العامة، لأنّ الصورة الكاملة للبلدان والدول، والعلاقات بينها،

¹ - الإكسبير في فكاك الأسير لمحمد بن عثمان المكناسي، تحقيق وتعليق: المرحوم محمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، سلسلة الرّحلات (أ)، سفارية (1)، ص (ذ).

² - أدب الرحلة للدكتور حسين نصار، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العامة للنشر، لونجمان، ص. 40.

³ - أدب الرحلة والتواصل الحضاري، ص. 314، مقال الأستاذ عبد السلام حيمر بعنوان: "أدب الرحلة السّفارية المخزنية وأثرها في انفتاح المغرب على التجارب التحديثية العالمية (النصف الثاني من القرن 19م)"، جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، سلسلة الندوات 5 / 1993، ص. 314.

⁴ - أوروبا في مرآة الرحلة، صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة للدكتور سعيد بنسعيد العلوي، ص 14، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات، رقم 12.

لا تكتمل إلا إذا عرّفنا عنها كل صغيرة وكبيرة، ودقيقة وجليلة، ومن ذلك أحوال المرض والصّحّة وإسهام الناس في تدبير شؤون حياتهم في حالة السلامة وغيرها، وفي ظروف الحرب والسّلام.

وإن اهتمامي بهذا الجانب الاجتماعي - وإن كان نادراً وروده في الرّحلات السّفارية خاصة - أريد به إبراز ثقافة المغربي الفقيه العالم السّياسي الطّبيب الإداري الخبير بأحوال البشر في السّرّاء والضّراء. ومن تلك الإشارات على سبيل المثال لا الحصر: أنه لما أصاب أحمد بن قاسم الحجريّ الأنديسي المعروف بأفوقاي - "تغوير" واعتزته بعض العلل كالتّأليل⁽⁵⁾، قام بتدبير العلاج بنفسه بطرق رآها ناجعة في الأحوال التي كان يعيشها، وهي ظروف المعاناة والمقاساة من العدو الكافر⁽⁶⁾، ومنها ما ذكره أحمد ولد قاد في تسرّاد الجيوش، وذلك بأن الجيش الذي رآه كان يشتمل على نحو الخمسين ألفاً بين المشاة، وكان فيه أسبّيّات محمول فوق كرّاريس مميّنة مطلوة بالأحمر والأبيض مميّزة بصليب وراية أيضاً بالصليب علامة بين الأجناس في القتال على احترام المرضى والمجاريح واجتناب مضرّتهم⁽⁷⁾. ومن ذلك ما ذكره عبد العزيز الثّعالبي عندما أصيب بمرض مخيف وأصبح مُقلاً لا يستطيع حراكاً، وبلغت حرّارته أربعين درجة،

⁵ - مادته اللغوية (ث أ ل ل) والتّؤلّل على وزن زنبور حلمة الثّدي، وبثّر صغير مستدير على صور شتى، فمنه منكوس ومتشقق ذو شظايا ومتعلق ومسماري عظيم الرأس مستدق الأصل وطويل معقف ومنفخ، وكله من خلط غليظ يابس بلغمي أو سوّوي أو مركب منهما، جمع ثاليل. يقال ثولّل (بضم الثاء) وتثالّل جسده. انظر: ترتيب القاموس على طريقة المصباح المنير. أساس البلاغة تصنيف وإعداد الطاهر أحمد الزاوي 1 / 394 (مادة ثالّل). وذكر بعض المهتمين بعلاج هذه الثاليل أنّه يشفى باستعمال حامض الأزوتيك. وعلى سبيل ذكر الخلط الغليظ اليابس البلغمي، انظر الهامش بعدد 17 في هذا البحث، (البلغم) الذي هو خلط من خلط البدن، ترتيب القاموس، وكذا كتاب الرازي المعروف ب: منافع الأغذية ودفع مضارها في أماكن مختلفة منها 287، 288، 294 خاصة.

⁶ - ناصر الدين على القوم الكافرين، مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحاب لأحمد بن قاسم الحجريّ الأنديسي (أفوقاي)، تحقيق محمد رزوق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء، ص 132-135.

⁷ - الرحلة القادرية في مدح فرنسة وتبصير أهل البادية، وهي ضمن كتاب: ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، تقديم وتحقيق: خالد زيادة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الجزائر، ط1، / 1979، ص 75-76.

وحصل له انحطاط عام ونزل منه عرق باردٌ بلل الفراش وبيست أظرافه وخمدت رجلاه وتحرّج نفسه وظهرت عليه أعراض الموت⁽⁸⁾. وكذا ما ذكره محمد الحجوي في رحلته الأوروبية، عندما أصابه مئذ البحر ومعاناة دوار الرأس وغثيان القلب وكربُ العربة⁽⁹⁾ وكذا الزكام⁽¹⁰⁾ وغير ذلك من الإصابات والجروح⁽¹¹⁾.

وإذا شئنا تصور تفشي الوباء فإن ابن بطوطة، بحكم كونه سفيراً لملك الهند، يقول:

"... رحلتُ إلى مدينة مَثَرَة، مدينة كبيرة متسعة الشوارع، وأول من اتخذها حضرة صِهري السلطان الشريف جلال الدين أحسن شاه وجعلها شبيهة بدِهلي وأحسن بناءها، ولمّا قدِمْتُها وجدتُ بها وباءً يموت منه الناس موتاً ذريعاً، فمن مرض مات من ثاني يوم مرضه أو ثالثه، وإن أبطأ موثّه فإلى الرابع، فكنت إذا خرجت لا أرى إلا مريضاً أو ميتاً. واشتريت بها جارية على أنها صحيحة فماتت في يوم آخر. ولقد جاءت إليّ في بعض الأيام امرأة، كان زوجها من وزراء السلطان أحسن شاه ومعه ابن لها سنّه 8 أعوام (ثمانية أعوام)، نبيلٌ كَيَس قطن، فشكت ضعفَ حالها فأعطيتها نفقة، وهما صحيحان سويّان، فلما كان من الغد، جاءت تطلب لولدها هذا كفنّاً، وإذا به قد توفّي من حينه. وكنت أرى بمَشُور السلطان حين مات، المئين من الخادِمات اللَّائِي أتِي بهن لدقّ الأرز المعمول منه الطعام لغير السلطان، وهن مريضات قد طرحن أنفسهن في الشمس، ولما دخل السلطان مَثَرَة وجَدَ أمّه وامرأته وولده مرضى، فأقام بالمدينة ثلاثة أيام، ثم خرج إلى نهر على فرسخ منها، كانت عليه كنيسة للكفار وخرجتُ إليه في يوم خميس، فأمر بإنزالني إلى جانب القاضي فلما ضربتُ لي الأُخْيِيَة، رأيت الناس يُسرعون ويمُوج بعضهم في بعض، فمن قائل إن السلطان مات ومن قائل إن ولده هو

8 - الرحلة السمنية لعبد العزيز الثعالبي، تقديم وتحقيق: حمادي الساحلي، ص 88.

9 - الرحلة الأوروبية لمحمد الحجوي، مقال د. سعيد بنسعيد العلوي ضمن كتابه: أوروبا في مراة الرحلة، صورة الآخر في آداب الرحلة المغربية المعاصرة، ص 108.

10 - نفسه، ص. 106.

11 - نفسه، ص. 138.

الميتُ. فكان موته مما زاد في مَرَضِهِ. وفي الخميس بَعْدَهُ تُوُفِّيَتْ أُمُّ السُّلْطَانِ.⁽¹²⁾ وقال أيضاً:

«ثم أصابني الحمى القاتلة هنالك فظننت أنها القاضية، وألهمني الله استعمال النمر الهندي، وهو هنالك كثير فأخذت نحو رطل منه وجعلته في الماء ثم شربته، وعافاني الله من مرضي، فكرهت تلك المدينة وطلبت الإذن في السفر، فقال لي السلطان: كيف تسافر ولم يبق لأيام السفر إلى الجزائر غير شهر واحد؟ أقم حتى نعطيك جميع ما أمر لك به خوذة عالم فأبيت وكتب لي إلى قن لأسافر في أي مركب أردت وعدت إلى قن فوجدت ثمانية من المراكب تسافر إلى اليمن فسافرت في أحدها، ولقينا أربعة أجفان فقاتلتنا يسيراً ثم انصرفنا ووصلنا إلى كولم وكان في بقية مرض فأقمت بها ثلاثة أشهر ثم ركب في مركب يقصد السلطان جمال الدين الهنوزي، فخرج علينا الكفار بين هنور وفاكنور⁽¹³⁾».

ولا شك في أن هذين النصين يبينان صفة الوباء والمرض وخطر ذلك وكذلك طريقة العلاج إذا كان ذلك ممكناً أو متيسراً.

وفي كتب الرحلة أخبار طريقة عن الانتقال إلى بعض الجهات من أجل الاستشفاء والتقاهة مثلما فعل الشدياق⁽¹⁴⁾، ومنهم من وصف باريس وأشجارها المستوفية النظام والنسق لكي ترد حرارة الشمس وتأذن لرطوبة النسيم، وهي جامعة كل شروط النظافة والإتقان، فلا يقوم هناك للجيف الطاعونية انبعاث⁽¹⁵⁾، وكذا ما ذكره فيليب جتي في رحلته إلى أمريكا. فقد أشار إلى أن شارل كارنيجي ونظيره روكفلر قد ساهما في بعض الأعمال النبيلة في ميدان الطب والعلاج، فروكفلر تخصص في إنشاء الوقفيات الجسيمة لنشر العلم ومكافحة الأمراض وتعزيز المشروعات الدينية وأدرك أنه لمجابهة الحمى الخبيثة في بناما واستئصاله جرائم الدودة المعكوفة

12 - مهذب رحلة ابن بطوطة، وقف على تهذيبه وضبط غريبه وأعلامه أحمد العوامري بك ومحمد أحمد جاد المولى بك، المطبعة الأميرية بالقاهرة، 1933، ص. 228.

13 - نفسه، ص. 228.

14 - انظر رحلة الشدياق في كتاب: الرحلة العربية الحديثة من أوروبا إلى الولايات المتحدة، ص 40-48.

15 - نفسه.

hook-worm في البرازيل وتطهيره مَصَادِر الطاعون في الهند والصين، إنما يحسن حالة بيته الصحية وبيته العالم، هذه هي أعلى درجات الكمال في التعاون.⁽¹⁶⁾

وهناك نصوص في بعض الرحلات المغربية تفيدنا في كثير من المسائل التي تخص الأمراض والأوبئة وطرق العلاج منها، وكذا ما يتعلق بالحجر الصحي المسمى: الكرنطيلة (أو الكرنطينة، واللام والنون تتناوبان في اللغة غالباً).

1- البلغم⁽¹⁷⁾

قال أحمد بن المهدي الغزال عند حديثه عن سبته: "لما انصرفنا عن دار الحاكم رجعنا عن غير طريقنا اختلاسا من القوم المنتظرين في الطريق أو بجناب الطريق الأولى، وقد عثرنا على باب في غاية العلو والضخامة، محمول قوسها على أربعة سَوَارٍ من المرمر، وبين كل ساريتين صورة آدمي واقف على قدميه من الحجر، فإذا هو بالأسبَّيْطال (المستشفى) الذي تعالج فيه مرضاهم فعبرناه فإذا به عدة بيوت مستديرة بصحنه، وبالصحن أشجار عديدة إذ كان في غاية الطول والعرض، والبيوت منها ما هو معمور بالأدوية محمولة على مراعٍ من الأرض إلى السقف وبيوت أخرى مملوءة بالأعشاب، ثم بيوت يسكنها القائمون بمؤن المرضى من الطبخ والنفخ،

16 - نفسه، 56. وانظر أيضا ص 171-172.

17- انظر كتاب: منافع الأغذية ودفع مضارها، تأليف أبي بكر محمد بن زكرياء الوازي، راجعه وقدم له الدكتور عاصم عيتاني، دار إحياء العلوم، بيروت. قال في باب (في أن الغذاء وإن كان جَيِّدَ الْخُلُطِ مَتَّى كَثُرَتْ كَمِيَّتُهُ أَوْ قَلَّتْ تُولَدُ مِنْهُ خُلُطٌ رَدِيٌّ): "الأغذية الكثيرة الغذاء الجيدة هي التي تُؤَلِّدُ دَمًا جَيِّدًا حميدًا كثيرًا. وإن أفرط في كميتها تولد عنها البلغم، وإن أفرط في نقصانها عن الواجب تولد عنها المَرَار. ولذلك ينبغي أن لا يتَّكَلَّ الإنسان في أمر الأغذية الجيدة على جودتها، ويستهيئ بكميتها، فيفوت أو يقصر فيها اتكالا على أنها لا تولد إلا الدم الجيد، فإنها لا تولد الدم الجيد إلا إذا كانت بمقدار لا يقل على الطبيعة بكميتها، ولا يَتَشَبَّطُ أيضا عن الحرارة الغريزية بقلة مقدارها." وانظر أيضا هذا الكتاب، ص. 287-288، وغير ذلك.

والمباشرون لهم في جميع أمورهم، وباقي البيوت بالطبقة السفلى وهي خاصة بالمرضى بالبلغم (الالتهاب الرئوي) والعياذ بالله، وبالطبقة العليا مقاعد ممتدة نافذة بعضها لبعض على الجهات الأربع، وقد استوعبها سرائر حاملّة المرضى، كل سرير بينه وبين الذي بجنبه قدر ما بين المباشر لهم، وكذا المقابل له في كل مقعد من الأربع، وفراش ووسادة وما يغطى به، ولباسهم الذي كان حال الصحة مؤمناً عند القيم. ولباس العلاج مُعَيَّن من الأوقاف يلبسونه عند دخولهم الاسبيطال، فإذا عُوْفِي الشاكي يلبس ثوبه المؤمّن وينزع عنه ثوب العلاج فينقى ويدخر لغيره. والاسبيطال لا ماء فيه، فهو كغيره من ديار المدينة، وليس هناك إلا الآبار".

2- أحوال الأسرى (من الطاعنين في السنّ والمبتولين والعرج والعميان، ومن في معنائهم)⁽¹⁸⁾

قال الغزّال: "لما حللنا الدار المعينة لنزولنا، وهي من أحسن دور المدينة جعل الحاكم عدداً من الشلطاظ بالباب وأمرهم بمنع من يريد الدخول علينا إلا بعد المشورة والاستئذان. وما زالت الأعيان تتردد إلينا بقصد السلام والترحيب بنا، وقد ظهر منهم في المباشرة ما فيه زيادة على غيرهم ممن تقدّمهم. وقد كان تقدّمهم بأمر من طاغيتهم بمباشرتنا والفرح بنا وبما يكون عليه العمل في شأن الأسارى من تسريح الطاعنين في السنّ والمبتول والأعرج والأعمى زمن في معنائهم والرفق بهم وبمن بقي منهم في الأسر من غير إيالة سيدنا، ومن كان من الإيالة المولوية يسرّح ثم يميز الحامل لكتاب الله وأن يعظم ويحترم..." إلى أن يقول⁽¹⁹⁾، بعد أن شعر بالتعب والمرض:

"ثم ناديت كبير الأطباء وباشرته كثيراً ورحبت به، وقد اختبر من حالي ما اختبر، فقال: لا بأس، وأن ما تجده إنما هو من تعب الطريق فقط،

18 - نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، رحلة أحمد الغزّال وسفارته إلى الأندلس، تحقيق وتقديم إسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط. 1980، ص. 53.

19 - نفسه، ص. 179.

وجعلت أتحدث معه في الأمور الطيبة، وأعترف له بمزية الحكماء وما هم عليه من الصدق والثقة والأمانة لتصرفهم في ذوات الخلق، وأن أمرهم مُمْتَلٌ عند الملوك والرعية، فهم ملوكٌ على الأبدان، فانشرح لذلك غاية واستحسن مخاطبتنا إياه وقال: هذا الخطاب لم نسمع مثله قط: وأنتم المسلمون لكم عقول وبصيرة مُنَوَّرَةٌ. وقد غلب على ظنه أنني من أكابر الحكماء، على أنني لا أفقه شيئاً، وإنما خطابي كان جَعْجَعَةً وسَقْسَطَةً لأمر أوجبته الوقت وأخذ معي في السؤال عن بَرِّ الإسلام وعمن به من الحكماء إلى أن انجَرَّ الحديث لأخبار المملكة وما هو عليه سيدنا نصره الله.

ثم تحدث الغزّال عن مسائل مهمة وغرائب وعجائب وكذا موقفه من الأسارى غير المغاربة من الجزائريين⁽²⁰⁾، ووصيته الأسارى بالصلاة والصبر والعرض على الذين بالنواجد⁽²¹⁾، وكذا إحضار الأطباء للفصل في بعض الأمور المعقدة⁽²²⁾، إذ إنه لما يَسَّرَ الله في إطلاق بعض الأسارى من الجزائر بالمدارة وحسن التدبير قال: ⁽²³⁾

"... وإنما ذلك إلهامٌ من الله تعالى وتيسير لإنقاذهم من الأسر، فقد كلن البحث عن شيء فأبرزت القدرة ما فيه من العجب من فكّك عدة من الأسارى من قيد الأسر فسرّحوهم في الحال، وأخذنا في تَسْرَادِ القوم، فكان قدر ما ثبت لدينا من المنتسبين للمغرب واحداً وعشرين لحقوا بإخوانهم المسرّحين وبقي من المنتسبين عدد آخر للاستفسار، لأن الروم عادتهم يصدقون المحدث لهم ما لم تظهر عليهم مخايل الكذب، أو يصدر منهم ما يؤذن بانحراف عن الجادة ولو نسياناً أو خطأ، فلم تقبل لهم كلمة قط بعد."

وقال: ⁽²⁴⁾

"وقد كسا الطاغية جميعهم وحض على الإحسان إليهم حيث أمره سيدنا أيده الله بذلك وتمييز ثلاثة من الطلبة الحاضرين في الوقت وتعظيمهم واحترامهم بحيث لا يكلفون بخدمة ولا تُهَضَّمُ لهم حرمة."

20 - نفسه، ص. 180.

21 - نفسه، ص. 182.

22 - نفسه.

23 - نفسه.

24 - نفسه، ص. 138.

وفي الرحلة أخبار مهمة كثيرة عن الأسرى وما كانوا يعانونه من السلامة والأكبال⁽²⁵⁾، وأوصاف الأسبيطالات في مدريد⁽²⁶⁾، وما والاها من الاسكوريال⁽²⁷⁾ وهناك صوراً رائعة عن الاهتمام بالمرضى وتبهيي وسائل العلاج لهم وقد قال عن أحد الفرانليّة النصرانيّين (رجال الدين عندهم)⁽²⁸⁾: "... وقد بالغ في الترحيب بنا وأبدى من المباشرة ما دل على باطنه، ومن جملة مباشرته وتأدبه معنا أنه دعانا أن نذهب معه لبيت الأدوية المشتمل على معاجن وأشربة وأدهان وعقاقير وأعشاب وطلب منا أن نأخذ منه ما نحتاجه، حيث ظن أننا نحسن شيئاً من علم الطب، فجزيناه خيراً واعترفنا له بما هو عليه من الصواب والأدب، ثم ذهبنا لمقعد آخر فإذا به من الحكماء يستعملون الأدوية الوقتية والمباشر لهشم العقاقير صبيان صغار بالمهراس ومنهم من يزيل من الأعشاب ما لا فائدة فيه، وهناك قطاطير قدر القامة من النحاس يقطر فيها ماء الأعشاب المحتاج إليها.

ومما يعجب كذلك أن الغزال كان عارفاً بمسائل صلاح الهواء وفساد الجو وما يتصل بذلك، قال⁽²⁹⁾ عن مدينة طريفة:

"المدينة لها بابان: برية وبحرية، وبها من الهواء الفاسد والعياذ بالله والوَحْم ما اشتكى بسببه الكثير منا ساعة حللناها، ولما جن الليل هبت رياح يثخن ماء وأديها، ضاقت منها نفوسنا وكادت أرواحنا أن تذهب، فأيقظت الخدّمة والأصحاب وألزمتهم أن يتهيؤوا للسفر قبل الفجر..."⁽³⁰⁾.

وفي الرحلة فوائد كثيرة أخرى جديرة بالاهتمام⁽³¹⁾.

25 - نفسه، ص. 184.

26 - نفسه، ص. 153.

27 - نفس المكان.

28 - نفسه، ص. 147-155.

29 - نفسه، ص. 154-155.

30 - نفسه، ص. 59.

31 - انظر مثلاً ص 120، 121 ... الخ.

3 - الكرنتينة⁽³²⁾

قال محمد بن عثمان المكناسي وهو بسببته أعادها الله إلى ديار المسلمين:

"دخلنا المدينة فإذا أزقتها وسككها وسطوح ديارها مشحونة نساء ورجالا فسار معنا أعيان بلدهم إلى أن وصلنا الدار التي أعدوها لنـزولنا، واحتفلوا فيها غاية كل ذلك إجلالا لمنصب سيدنا ومولانا. وقد ذكروا لنا قبل أن لا بد لنا من أن نجعل الكرنتينة⁽³³⁾، ومعناها عندهم أن يقيم الذي يرد عليهم في موضع معروف عندهم معد لذلك أربعين يوما لا يخرج منه ولا يدخل إليه أحد، وسبب ذلك أنهم يتحرزون أن يدخل الوباء أرضهم وبلادهم لتوهمهم أنه في بلادنا أعادنا الله منه، ولم يكن عندنا شيء من ذلك فيجعلون تلك الكرنتينة احتياطاً وقطعا للشك، بحيث إذا كان في الوارد عليهم شيء من ذلك يظهر عليه في تلك المدة، وإن ظهر عليه شيء من ذلك فلا يدخل البلد وحين تكمل الكرنتينة ولم يظهر عليه شيء يأتي الطبيب ويقلب (يفحص) من هو في الكرنتينة، فإن أخبر بأنه لا باس به يدخل المدينة ويتلاقى مع الناس وإلا فلا، ومن جملة قوانينهم في ذلك أنه إذا تلاقى أحد من أهل البلد مع الوارد الذي يرد عليهم من بلاد مشكوك فيه الوباء يجلس معه في الكرنتينة حتى يكملها، وبعد فراغه ينظره الطبيب، ولهم في ذلك تشديد كثير حتى إن الذي يأتي إلى صاحب الكرنتينة بالطعام يطرحه له من بُعد ويحمله الآخر ولا يتماسان، وإن ورد عليهم بكتاب ذكروا أنهم يغمسونه في الخل بعد أن يقبضوه منه بقصبة وبعد ذلك يقرؤونه، ولهم في ذلك قواعد لا يكادون يخرمونها. وموضع الكرنتينة المذكورة خارج عن المدينة بين الأسوار، ونحن من مهابة سيدنا ومولانا وعلو قدره ومنصبه لم يجعلوا لنا شيئا من ذلك. فأدخلونا المدينة وأنزلونا بدار هي أفضل ديارهم منسوبة إلى طاغيتهم (ملك الأمم المسيحية) وأخبرونا بهذا الخبر، يظهرون مراعاة سيدنا أيده الله والميل إلى جانبه الشريف

³² - الإكسیر فی فکاک الأسیر ص. 9-10.

³³ - هي مُدَّ الحَجَر الصَّحِي، من اللغة الإسبانية cuarentena أي مدة أربعين يوما وهو الأمد الأقصى لظهور الأمراض الخطيرة ومعناها محدد في الفقرة المخصصة لهذا المعنى الوارد في كتاب فکاک الأسیر للمكناسي.

واستجلاب خاطره وقالوا لنا: تجعلون الكرنتينة بهذه الدار أربعة عشر يوماً فقط على أعين الناس، وليست هذه الكرنتينة جارية على قوانينهم لأنه في كل يوم يأتي إلينا كبارهم وأعيانهم وحاكمهم ويجلسون معنا ويبحثون عن مقضياتنا (حوادثنا) ويتفقّدون أحوالنا، وعلامة صدقهم فيما ادعوه من جعل المزية لنا في ذلك أننا وجدنا عندهم نصارى إخوانهم وردوا من بلادنا بين أسوار المدينة يجعلون الكرنتينة كما هي عندهم.

4- الأسبطار (المستشفى)⁽³⁴⁾ أو (المارستان) (الأسبطار)

ثم تحدث ابن عثمان المكناسي عن المارستان قائلاً عند وروده على طليطلة:

"... وقد أرونا الأسبطار وهو بمنزلة المارستان ببلدنا في غاية النظافة والكبر، وله وكلاء قائمون بوظائفه وبأمور المرضى من علاج وماكول ومشروب وملبوس، وعادتهم في ذلك إذا دخل المريض إلى الأسبطار أن ينزعوا حوائجه ويلبسوه ثياباً من الحبس الموقوف على الأسبطار ويعالجه الطبيب المعين للأسبطار ويأكل ويشرب على حسب ما يرى الطبيب، فإذا برئ يلبس ثيابه التي دخل بها ويضع ثياب الحبس ويخرج إلى سبيله، وللنساء موضع مخصوص عليه نساء عجائز يقمن بأمورهن وللرجال كذلك. وهذه الأسبطارات في جميع بلاد إصبانيا، ولكل أسبطار طبيب له بيت جامع لسائر الأدوية ومطبخة فيها سائر اللحوم الوحشية والإنسية وإذا أمر الطبيب الطباخ بشيء منها طبخه من حينه ويناوله المريض."

وممن ذكر هذه الأسبطارات أيضاً محمد بن عبد الله الصفار في ذكره لمدينة باريز⁽³⁵⁾، فقد أشار إلى أن المكسوس تُصنّف على أسبيطارات المرضى ومدارس تعليم أولاد الفقراء وغير ذلك من مصالح البلد. وذكر أنك لا ترى في طرفهم شيئاً من الكناسة والزبل أصلاً وكل يوم تكنس وترش بالماء إن لم يكن المطر إلا أن أعيب ما يعاب فيها أنهم يبولون في أصول

³⁴ - الإكسير، ص. 147.

³⁵ - الرحلة التطوانية إلى الديار الفرنسية، دراسة وتحقيق: أم سلمى، تقديم الدكتور عبد الله المرابط الترغي والأستاذ مصطفى الشعشوع، ط 1 / 1995، ص 59.

الحيطان، والماء المضاف بالبول يجري على وجه الأرض، لكن يشفع في ذلك سعة الطريق حتى يبقى ذلك في ناحية لا يضر بالماشين⁽³⁶⁾.

5- الريح الأصفر (الكوليرا) بفاس

ذكر أبو الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمان الفاسي في رحلته إلى الديار الإنجليزية قال⁽³⁷⁾:

"وصف مكتب البرق: ذهبنا لمحل السلك (مكتب البرق أي التلغراف) المعدّ لورود الأخبار من المحال وتوجيهها، وسبب دخولنا إليه أن أصحابنا الذين كانوا بباريز سمعوا بخبر الريح الأصفر بفاس وما والاها وبقوا على شك من ذلك فأرادوا أن يحققوا الخبر عن ذلك ويسألونا عنه وطلبوا من أرباب صنعتهم هنالك أن يخبرونا بواسطة أرباب صنعتهم بالأنديز، ووقتوا لذلك وقتاً معيناً... وقيل إنه كان هنالك شيء فعاهاهم الله..."

وقال الفاسي أيضاً وهو على البابور⁽³⁸⁾:

"سرنا يومنا، والمكلفون بالبابور، كل واحد قائم بوظيفته حرفاً حرفاً، ومن جملة ما في هذا البابور طبيب ماهر وراهب يتحنث هناك..."

وأريد بهذه الإشارة الإلماع إلى أن هناك من يداوي الأجسام وهناك من يداوي النفوس على طريقتهم طبعاً، وذلك كما نجد في النظم الإسلامية المرشدين في جميع المؤسسات والعسكرية منها خاصة.

6- الطاعون والكرونتينة

من إفادات الكاتب السفير الأديب الحاج إدريس العمراوي، قوله وهو عائد إلى المغرب⁽³⁹⁾ من باريز:

36 - نفسه، ص. 94.

37 - الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية لأبي الجمال محمد الطاهر ابن عبد الرحمان الفاسي، حققه وعلق عليه محمد الفاسي، ص36، مطبعة جامعة محمد الخامس، فاس،

1967-1387.

38 - نفسه، ص. 40.

"رجعنا بعد قضاء المطالب على طرق الحديد التي ذهبنا عليها وركبنا في ذلك البابور عند النزول ووصلنا بين العشائين مدينة ليون فبتنا في المحل الذي بتنا فيه قبل، وسافرنا منه بكرة ووصلنا مرسلية عند العصر فنزلنا بالمحل الذي نزلنا به أولاً، وورد علينا إخواننا تجار المسلمين الذين هناك وأخبرونا بخير عن أهلنا وبلادنا بعد أن كنا في غاية التشویش للخبر الذي كان بلغنا من ظهور الطاعون بالغرب وكانوا يعظمونه في الجوازيط ويهولون أمره فوجدنا الأمر خفيفاً والحمد لله، ووجدنا المركب الذي توجهنا فيه ينتظرنا بالمرسى فبتنا ليلة بالمدينة وركبنا عند الزوال وهناك فارقنا ترجمان سلطانهم الذي كان تلقانا عند قدومنا لمرسلية أولاً، وسافرنا من مرسى مرسلية بكرة يوم الأحد وسرنا بريح طيبة حتى أشرفنا على جبل طارق بكرة يوم الأربعاء فدخل بنا رئيس المركب لمرساه ليبحث عن خبر الطاعون وهل يحتاج إلى كرنيطة عند رجوعه من طنجة لحمل الفحم من هناك أم لا. فشرطوا عليه أن لا ينزل أحد من مركبه للبر ويعود إليه ولا يحمل شيئاً من البر طعاماً ولا غيره وأعطوه عسكرياً منهم يشهد على ذلك، وسافرنا من هناك بعد الظهر بساعة وسرنا مسامتين بر إصبانية وهو عن يميننا حتى بلغنا مدينة طريف ومنها قصدنا طنجة، فوصلناها قبل الغروب بساعة وخرجت لنا فلوكة المرسى الكبيرة فنزلنا فيها بعد أن ألحَّ علينا الرأيس وأصحاب المركب في المبيت حتى ننزل صباحاً فأبيناهم عليهم ذلك شوقاً إلى بلادنا وملا من عشرتهم، وكانت الريح شرقية فخننا من هيجان البحر إن مكثنا إلى الصباح، فنزلنا بعدما غربت الشمس وبات أصحابنا هناك إلى الصباح، ولما نزلنا من المركب أخرجوا المدافع المعلومة وأجابهم أهل المرسى بمتلها. "ثم ذكر الصفار عجيبة وهي قوله:

"لما أردنا النزول في الفلوكة الواردة علينا من البر، أمر الرأيس المسلمين الذين فيها أن لا يمسوا مركبهم ولو بأيديهم وأمر أن لا ينزل أحد معنا من بحريته أو يلمس أحد منهم الفلوكة."

39 - تحفة الملك العزيز بمملكة باريز، للكاتب الأديب إدريس بن محمد ابن إدريس العمرأوي، تقديم وتعليق الدكتور زكي مبارك، ص. 124-125.

وإذا كان الطاعون والريح الأصفر خفيفاً بالمغرب فإن إسبانيا كانت تعرف طاعونا جارفاً. ويظهر لنا ذلك من خلال ما أثبتته الكرودوي في رحلته⁽⁴⁰⁾:

"لما حللنا بثغر طنجة السعيد أقمنا فيه للاستراحة لا للميل إلى الدعة والراحة فإذا به بلغنا أن بقاعدة ملك الإصبيول فتنة فيما بينهم، وأن الطاعون حل أرضهم وقد أصيبوا منه بأعظم داهية وفي كل يوم ينتقل عدد منهم للهاوية فتنبطنا ريثما ينجلي الحال ويتضح الأمر والله سبحانه في خلقه كل يوم أمر، ثم لم يزد ذلك عندهم إلا شدة إلى أن بلغ أشده ومن المقرر المعلوم عندهم جعل الكرنطينة أيام الوباء لما يعتقدونه من العدوى ويتحروثه من مواطئ محال البلوى، فلا تجد أحداً ممن جاورهم إلا وهو يتحرى الدخول عندهم، ولا يردّ وارداً من ناحيتهم إلا ردّ قبل تحقق عافيتهم، ولم تزل أخبار الطاعون وكثرته كل يوم تتجدد وربما ألموا في ورقات أخبارهم يذكر العدد، فقد ذكروا أنه مات به منهم عدد من الألوف، وأنه زاد كثرة على المعهود منه والمألوف.

أما الفتنة الواقعة بينهم فقد آل أمرها إلى الانحلال، وبمشاهدة سطوة العزيز الجبار صارت إلى اضمحلال، أما الطاعون فقد مكث في أرضهم أربعة أشهر وانكشف، وجملة من مات منهم على ما ذكره أزيد من مائة ألف.

ثم قال أيضاً⁽⁴¹⁾:

"ولما انجلى الطاعون عن بلاد الإصبيول بعد مقامنا بثغر طنجة حرسه الله مدة من خمسة أشهر منتظرين انجلاءه عن أرضهم وإباحة الخروج من عندهم والدخول إليهم، وردت فركاطة (سفينة حربية fragata) من المراكب الحربية بقصد حملنا والتوجه بنا لبلادهم بأمر من طاغيتهم..."

ووردت إشارات تتعلق بالطب في رحلة الكرودوي، منها:

"أن في إشبيلية قطارات وآلات لاستخراج المياه التي يتوصل بها لذلك ولما يحتاجه أطباؤهم منها⁽⁴²⁾، ولما زار معسكر إشبيلية وجده محلاً متسعاً

40 - التحفة السنية للحضرة الحسنية بالملكة الإصبيولية لأبي العباس أحمد بن محمد الكرودوي، المطبعة الملكية، 1383-1963، ص. 30.

41 - نفسه، ص. 39.

في أسفله أماكن لجلوس الكبراء ومحل الطبيب، وفيه ما يحتاج إليه ويتوقف عليه من الآلات الطبية وأنواع الأدوية...⁽⁴³⁾.

ولما زار متحف مدريد قال:

"رأينا بهذا المحل ذواتاً متصلة العظام تامّة صغيرة الأجسام متصلة أيديها بأرجلها كادت أن تكون منكبة على وجوهها ذكروا أنها موتى أهل أمريكا وأنهم كانوا في القديم يدفنون موتاهم على تلك الكيفية التي رأيناها عليها، وقد كدنا أن نغمي علينا في هذا المحل مما رأيناه. ومن قبيح رائحة جعلوها فيه حين أرادوا أن يدخلونا إليه فخرجنا منه مُسرّعين وأبّنا إلى محل نزولنا في الحين."⁽⁴⁴⁾

7- كرنتيلة الحجاج وتبخير ثيابهم

لما وصل الحسن الغسال إلى قرية على شاطئ بحر خليج السويس الشرقي قال⁽⁴⁵⁾:

"... أغلب سكان هذه القرية من القنط، وفي ضواحيها كثير من البدو، وفي شماله جبل المناجاة المذكور في القرآن، والله تعالى أعلم. وفي شرق هذه القرية المحجر الصّحي وفيه مَبَاخِرُ، وبنفس ما أرسينّا فيه صعد إلينا طبيب الكرنتينة للفحص عن صحة الحجاج، وأعلن بأن نزولنا لا يمكن إلا بعد إقامتنا في البابور سبعة أيام، ورجع لحال سبيله، وبقي الحجاج بعضهم فوق بعض في حالة يرثى لها من شدة الضيق، وتجيء إلينا مرة في اليوم فلوكة حاملة مؤونة رديئة بثمن غال ولا يشتري الإنسان منها إلا ما يلزمه لضروريته التي لا بد له منها إلا بعد مشقة عظيمة، من كثرة الازدحام والهرج وبعد مضيّ السبعة أيام، رخصوا لنا في النزول إلى المباخر وأركبوا الحجاج في قوارب و بابور صغير.

⁴² - نفسه، ص. 51.

⁴³ - نفسه، ص. 83.

⁴⁴ - نفسه، ص. 53.

⁴⁵ - الرحلة الطنجوية الممزوجة بالمناسك المالكية للحسن بن محمد الغسال، تقديم ونشر: د. عبد العزيز خلوّق التمساني، ط1، 1998، ص. 51-52.

وقبل النزول أعلن بعض الملاحظين بأن لا نأخذ معنا عقشنا إلا الفراش وبعض الملابس ليس إلا وما زاد على ذلك يترك بالبابور حتى يضع على أيديهم حين ينتهي أمد الكرنطينة، وما نزلنا البر إلا بعد مشقة عظيمة. ثم إن من دفع نصف إبرة مع كسر قذموا لموضع التبخير. ومن عجز عن دفع القدر المذكور لفقره منع من الدخول له، فيظل نهاره تحت الشمس المحرقة، ومن فقراء الحجاز من بقي ثلاثة أيام على هذه الحالة السيئة حتى انتهى التبخير لسائر الحجاج الذين أدوا القدر المشار إليه.

وعند الشروع في التبخير سلبوا الحجاج من ملبوسهم وستروا عورتهم بقميص زرقاء كالحنط وألقوا تلك الحوائج في مكينة التبخير.

وبعد تمام هذه المعاملة الفظيعة أشار الطبيب باصطفاف الحجاج على نحو النظام العسكري ليختبر صحتهم واحداً بعد واحد ثم يرشه بماء كريه الرائحة. وعند انتهاء التبخير أمر بإخراج الحجاج من غير الطريق التي سلكوها أولاً. وهناك يجد كل واحد منهم ملبوسه ملقى على الأرض مبخرة، فمنها ما هو محروق ومنها ما يقطر ماء تصعد منه رائح كريهة، ولا تسمع حينئذ إلا صياح الحجاج فهذا يبكي على حوائجه أحرقت له بما فيها وهذه تلطم خديها على ضياع حليها ثم أخرج الجميع إلى محجر الصحة محاطين بالعساكر النظامية.

والذي يفسر هذه المعاملة السيئة ما ذكره اللواء إبراهيم رفعت باشا في رحلته الحجازية، وذلك في حديثه عن الحجر الصحي بالطور، قال⁽⁴⁶⁾ في حديثه عن السفر من المدينة إلى ينبع فالطور:

"يقوم بالتفتيش جماعة من الأروام المسيحيين ليسوا على طريقة واحدة في معاملة المسافرين وبحث الأمتعة، فمنهم من يبحث المتاع قطعة قطعة مع أدب وحسن معاملة ومنهم من يجعل عالي الأوعية سافلها ويرمي بكل ما فيها على ظهر الأرض من غير مبالاة، مع أن أكثر ما بها زجاجات عطرية وأوان فضية دقيقة، فقلما تسلم من العطب ويريقون السمن البلدي الجيد والزيت الطيب على وجه الأرض وكثيراً ما بحرّوا أمتعة جديدة نظيفة لم تسكن بها جراثيم الأمراض، وإذا ما بحرّوا الثياب خلطوا بعضها ببعض ثم رموا بها إلى الأرض فيصعب على الإنسان العثور على ملايه..."

46 - مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، تأليف ورسم اللواء إبراهيم رفعت باشا، 2 : 31.

كانت هذه بعض الإفادات عن تلك الرحلات السفارية، وغيرها مما يعطي صورة واضحة عن الأوبئة والأمراض وتدبير الناس لها في بعض البقاع والبلدان.